طريق النجاة

أيها القارئ الكريم:

عندما يضعف الإيمان في نفوس الناس يضطرب ميزان التفاضل بينهم.

فيتفاضلون بالزينة والمتاع، ويتفاوتون بالأنساب والألقاب.

وعندئذ يقع التنافس المسعور، وتكون المغالبة والمكاثرة. يُفتن الناس بما في أيديهم وينسون غدهم.

إذا بعدت النفس عن حقيقة الإيمان ساقها الهوى إلى الضلال. فتغيرت نظراتُها إلى الأشياء فآثرت الفاني ورغبت عن الحق. فبعدت عن موطن العز، وانتهت إلى المهانة والذل.

والحق لا يَرْغب عَنهُ أحدٌ إلاَّ ذَل، ولا يعتصم به أحَدٌ إلا عزَّ.

وما نزله الله على نبيه هو الحق. والناس مطالبون أن يخضعوا نفوسهم له، ويزنوا أمورهم به ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [1]

إن خضوع النفس للحق عِزٌّ لها، وفوزٌ تُحقق به نصراً على أعدائها. قال ابن الخطاب لسعد بن أبي وقاص وقد ولاه حربَ العراق: ((إنِّي قد وليتك حربَ العراق، فاحفظ وصيَّتي، فإنك تَقْدِمُ على أمْرٍ كريه شديد، لا يُخَلِّصُ منه إلا الحقُّ، فعوِّد نفسَك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادةٍ عتاداً، فعتادُ الخير الصبرُ،

(١) النساء : ٦٥.

فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابَك، يجتمع لك خشيةُ الله، واعلم أن خشيةَ الله تجتمع في أمرين في طاعته وفي اجتناب مَعْصيَته، وإنما أطاعَهُ مَنْ أطاعَه بِبُغْضِ الدنيا وحُبِّ الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.

وللقلوب حقائقُ يُنشئها الله إنشاءً، منها السرُّ ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامِدُه وَذَامُّه في الحق سواءً، وأما السرُّ فَيُعْرفُ بظهور الحكمة من قلبه ولسانه وبمحبة الناس، فلا تزهد في التحبُّب. فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عَبْداً حبَّبه، وإذا أبغض عبداً بغَّضه، فاعتبر منزلتَك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يَشْرعُ معك في أمرك)).

تأمل هذه الكلمات النيرة تعرف الطريق. طريقَ الحق الذي سلكه هؤلاء الأطهار. فغزوا وانتصروا. وكانوا سادة الدنيا وقادها، والواقفين على ذروة المجد فيها.

واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته، وفي اجْتنابِ مَعصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغْضِ الدُنيا وحبِّ الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.

إن طريق الخشية هو طريق النجاة، والمؤمن حر كريم، يخشى الله وهو يعلم أنه الرحمن. فخشيته تأتي من طريق الاعتراف بفضل الله والحياء منه. فهو يعمل على مرضاته، ويخشى أن يقع منه ما يُغضب الله؛ لأنه يعرف فضله ورحمته ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

---

(١) ق : ٣١ – ٣٥.

obeikandl.com

طريقُ الخشية هو طريقُ الفوز والنجاة. وخَشية الله تجتمع في أمرين: في طاعة أمره وفي اجتناب معاصيه.

ولا تتحقق الطاعة والنفس أسيرةٌ لمتاع، ذليلةٌ لضياع، مفتونةٌ بزهرة الحياة. لا بُدَّ أن تتجاوز هذا الحطام. وأن تنفذ بعين الاعتبار إلى ما هو خيرٌ وأبقى. لا بُدَّ أن تحدد موقفَها وعلاقتها بالدنيا. أهي علاقةُ مقيم أم مسافر ؟ أهي دار ابتلاء واختبار أم دارُ نعيم وخلود ؟

إن بُغض الدنيا يُحقق إخضَاعَها للخير والحق، وحبَّها معناه أن تسيطر على قلب الإنسان فتقفُ النفس عند متاعها ولا تزيد ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1].

وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة.

إن امرأة فرعون كانت بين طلاب الدنيا وعُشَّاقِهَا، لكنها استعلت على عرض الحياة. عاشت فيه و لم تخضع النفس له، تبرأت من فرعون وقومه وهي تعيش معهم، مُبْغِضةً لما يُحبون، راغبةَ فيما يكرهون. دعت ربَّها أن يبني لها بيتاً في الجنة، وأن ينجيها من فرعون وعمله.

إن النفس قد علت بإيمانها فلم تفتنْها زهرةُ الحياة، واعتصمت بيقينها فلم تركــن إلى المــؤثرات من حولِها، فكانت مثــلاً في طــاعةِ الله يُضــرَب للمؤمنين ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي

---

(١) الشورى : ٢٠.

عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم:

إن الله قد أحلَّ لنا الطيبات، وحرَّم علينا الخبائث. والنفسُ إن خضعت لهواها اشتهت ما ليس لها، فوقعت في المحرمات، وإن قنعت بما أحل الله لها طاب سعيُها وسلمت عاقبتها.

ومن العبث أن يقف الإنسان عند مرحلة من مراحل سيره، وينسى ما هو مقبل عليه من ساعة حساب ويوم جزاء ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾** ﴾ (٢)

والدنيا - التي يحرص الناس عليها - لا يستقيم أمرها إذا وقف الناس عندها وركنوا إليها واطمأنوا لها. إن سعي الآخرة هو الذي يصحح أمرها. والإيمان بيوم الحساب والجزاء هو الذي يحقق لها أسباب الطمأنينة والأمن.

ففي ظل هذا الإيمان تجد الخضوع للخالق والاعتراف بفضله، فتجدُ البر الصادق بعباده في سخاءٍ لا منَّ فيه ولا أذى.

فتمضي النعمة في طريقها الفطري خاضعةً للقيم، خاشعةً في محراب الحق. لا تتغَيَّر معها النفوس بين إقبال وإدبار. بل تتحول هي بفعل النفوس البارة إلى بر، وبعمل القلوب المجاهدة إلى سلاح يردع البغي ويدفع الظلم.

---

(١) التحريم : ١١.

(٢) المجادلة : ٦.

تأبى النعمة مع النفوس المؤمنة إلا أن تتحول إلى معنى التواضع، والعدل، والبر، والرحمة، والجهاد، والذل، والتضحية، وتلك صفات النفس المطمئنة بإيمانها الثابتة بيقينها النفسي التي تُقْبل عليها النعمة، فتأبى إلا أن تتخلق، وتخضعَ لصفات النفس، وتمشي في ركابها تحقق شكر الخالق في البر بالمخلوق.

وتطويعُ النعمة للفضائل والأخلاق أمرٌ لا يقوم إلا بإيمان صادق بيوم الحساب والجزاء ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا** ﴾ (1)

إذ يدرك مع هذا اليقين أنه مع خيره في خيرٍ أبداً ومن شره في شر. فيتحقق الاعتدال الذي تنشده الدنيا فلا تجدُه إلا عند نفوس لا يُطغيها الغنى ولا يُذلها الفقر؛ لأنها عزيزةٌ بما لديها من الحق الثابت، غنيةٌ بما في نفسها من رضى بالله الغني الحميد.

لا بُدَّ لكل عارض من خُلق يحكمه، وإلاّ دُمِّر الإنسان بظروف الحياة المتباينة وأحوالها المتغيرة. والإيمان بالحساب والجزاء هو الذي يضع في كلّ شئ خلقه، هو الذي يحقق في المصيبة خلق الصبر، وفي النعمة خلق الشكر، وفي الصحبة خلق الوفاء، وفي الجهاد خلق العدل، وفي النصر خلق التواضع، وفي المقدرة خلق العفو، إنه يمنح الدنيا رشدها وخُلقها، ويُمسِك بزمام الإنسان راشداً في الدنيا موصولاً بالآخرة، وعندئذ يجد الإنسان في كل عارض عنصر النجاح.

والرسول ﷺ يَعْجَبُ من أمر المؤمن وهو يظفر من كل شئ بخير ما فيه. وخيرُ ما في النعمة شكرُها، وخير ما في الضراء الصبرُ عليها. فيقول: « **عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ – وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ – إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ**

(1) آل عمران : من الآية ٣٠.

obeikandl.com

خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » [1]

أخي المسلم:

كُن حكيماً في تدبر أمرك، وضع كلَّ شئ في موضعه فلا تركن إلى الدنيا على أنها دار خلود وبقاء، ولا تنس الآخرة وأنت في كل يوم تقترب منها، بل عـامل الدنيا على قدر إقامتك فيها، واعمل للآخرة مدركاً خطرهَا وأثرهـا لتؤتى الحكمـة ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [2]

✿✿✿

(١) رواه مسلم.

(٢) البقرة : من الآية ٢٦٩.

obeikandl.com